مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد 08 / العـدد: 02 (2022)، ص 30-48

الجنوب الغربي الجزائري من خلال قراءة في كتاب: L.Baquey, La pénétration saharienne, résumé historique1899-1905.

The Algerian southwest through reading in a book: L.Baquey, La pénétration saharienne, résumé historique1899-1905.

أ.د سلاماني عبد القادر[1*]
[1]جامعة طاهري محمد -بشار (الجزائر)، abdelkaderslamani@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/31 تاريخ النشر: 2022/12/25

ملخص:

جاءت الدراسات التاريخية الفرنسية حول الصحراء الجزائرية، وخاصة ما ارتبط بالجنوب الغربي من اهتمامات المستكشفين والعلماء ورجال الدين وبعض القادة السياسيين والعسكريين، وقد تلخصت كتاباتهم التاريخية حول عمليات التوغل الاستعماري بالصحراء الجزائرية واهم الصعوبات التي واجهوها في عمليات التوسع والاحتلال، ومن بين هذه الكتابات التي أولت اهتمامها بالجنوب الغربي الجزائري ما ألفه الضابط باكي (Baquey): إذ حاولنا دراسته ومعرفة أهم محاوره ونتائجه، وكيفية دراسة الصحراء من رؤية استعمارية.

كلمات مفتاحية: الصحراء، الجنوب الغربي، التوغل، الكتابات الاستعمارية، الضباط العسكريين، الفرق العسكرية.

Abstract:

The French historical studies on the Algerian desert, especially those related to the southwest through the interests of explorers, scholars, clergy and some political and military leaders, summarized their historical writings about the colonial incursions in the Algerian desert and the most important difficulties they faced in the expansion and occupation operations. Among these writings that gave attention to the south The Algerian western book: What we tried to study and know the most important topics it included
and how to study the desert from a colonial vision and the most important results.

Keywords: desert, southwest, incursion, colonial writings, military officers, military teams.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

في البدء دراستنا تتمحور حول إحدى المواضيع الهامة التي كانت من اهتمامات المؤرخين والكتاب الاكاديميين الفرنسيين والتي خصت الجنوب الغربي الجزائري في بدايات التوغل الاستعماري، وسبل السيطرة على الصحراء ومن بين هذه الكتابات الأولى ما ألفه الملازم باكي **L.Baquey, La pénétration saharienne résumé historique1899-1905.** وهو عبارة عن ملخص تاريخي 1899-1905م " تضمن موضوع التوغل الاستعماري في الصحراء الجزائرية باعتباره نموذجا حاول من خلاله إعطاء فكرة مختصرة حول عملية التوسع الاستعماري في المناطق الصحراوية.

بعد اطلاعنا على الكتاب وقراءة محتواه وما تضمنه من معطيات تاريخية مصدرية خصت الجنوب الغربي الجزائري جغرافيا وبشريا، تأكد لدينا انه مصدر من المصادر الأكاديمية التي اعتمد فيها كاتبها على الرواية الشفوية ولمح إلى الحالة السياسية التي كانت تعرفها هذه المناطق، وجاءت كتاباته انعكاسا لما عايشه من وقائع وما توصل إليه من معرفة خصت الجانب الاقتصادي للساكنة المحلية وردود فعل اتجاه عملية التوغل الفرنسي في ظل عملية الغزو.

تطرق الكاتب إلى موضوع التوغل العسكري في الجنوب الغربي الجزائري ما بين 1899- 1905م وذكر أن ما جاء به من تفاصيل كانت خلاصة ما أبصره وسمعه من أقوال الذين عايشوا الفترة وأحداثها التي كانت لها صدى كبير في فرنسا نظرا للخسائر المادية والبشرية التي تكبدها القوات الفرنسية أثناء عملية التوغل.

2- لمحة حول الكتاب: يعتبر كتاب الضابط باكي (L.Baquey, La pénétration saharienne, résumé historique1899-1905.) من الكتابات الاستعمارية التي ارخت لتوغل قوات الاحتلال الفرنسي بالمنطقة فهو يصف عملية التوغل الاستعماري بمنطقة الجنوب الغربي الجزائري، وما هي العراقيل التي واجهتها قوات الاحتلال الفرنسي كما

تعرض لأهم الحملات الفرنسية والبعثات الاستكشافية واهميتها، في استكشاف تلك المناطق، وطريقة التعامل مع السكان ودراسة أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والوقوف على نقاط القوة والضعف، في كيفية تمكين قوات الاحتلال الفرنسي من السيطرة على تلك المناطق البعيدة الى جانب صعوبة الطقس وتضاريس المنطقة.

تعتبر هذه الدراسات مثلها مثل الدراسات الفرنسية التي اهتمت بتاريخ الجنوب الغربي الجزائري، دراستنا اختصت بقراءة في كتاب الملازم الفرنسي باكي من خلال ما كتبه حول ما شاهده وروي له حول عملية التوغل الفرنسي في الصحراء الجزائرية ما بين 1899-1905م لم تكن هذه الدراسة للنقد والمقارنة وانما لقراءة وتحليل ما جاء به الملازم باكي.

هناك عدة دراسات فرنسية من مصادر مادية ومعنوية ارخت لمنطقة الجنوب الغربي الجزائري من بينها دراسة لويس اوجين كافينياك حول التوغل الفرنسي في الصحراء (Expédition du Générale Cavaignac dans le Sahara Algérien en Avril etMai 1847,) الذي تطرق في دراسته حول الصحراء بالجنوب الغربي من خلال رحلته الاستكشافية حيث تعرض في دراسته حول الواقع الاجتماعي والاقتصادي لسكان تلك المناطق ودراسة انتروبولوجية حول المجتمع الصحراوي وتركيبته الاجتماعية من عادات وتقاليد وطبيعة المناخ واحول الطقس وتضاري تلك المناطق وهذه الدراسة لا تختلف عما جاء به الملازم باكي في كتابه حول الوضع الاجتماعي والاقتصادي وطبيعة السكان لتلك المناطق الصحراوية.

كما هناك دراسات تاريخية أخرى اهتمت بالجنوب الغربي الجزائري، تعكس نفس النظرة والمدرسة الاستعمارية الفرنسية في معالجة وتحليل، للواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي والعسكري لتلك المناطق الصحراوية.

3 . وصف عام "تضاريس المنطقة الصحراوية":

قدم الكاتب وصفا عاما جغرافيا عن الصحراء وذكر أن حدود الصحراء الفرنسية تبدأ حسب وصفه من المشارف الجنوبية للهضاب العليا المغربية والجزائرية

شمالا إلى غاية اقاصي الحدود الصحراوية التشادية والنيجرية جنوبا، ومن المحيط الأطلسي غربا إلى غاية خط غات غدامس وتشاد شرقا، على مساحة رملية واسعة جافة تتخللها اراضي صخرية دون أي لون اخضر يذكر ، الا ان مناطق الواحات مياهها قريبة من السطح لذلك فهي اهلة بالسكان، وهذه المناطق تغذيها اودية صحراوية منبعها جبال الاطلس مثل واد زوزفانة الذي يخترق الاراضي الصحراوية شمالا وواد الناموس وواد قير الذي ينبثق عنه واد الساورة.

وتستمد هذه الاودية مصدرها المائي من الأمطار الطوفانية والثلوج الذائبة والتي شكلت خزانات مائية مؤقتة تسمى غدير، وظلت هذه الأودية مسارا للمستكشفين وخط عبور لحملتنا. .(L.Baquey, 1908,p06).

عرض الضابط باكي وصفا مفصلا للحدود الجغرافية والتضاريس والاودية وذكر مناطق تواجد المياه واهم منابعها، محاولا التطرق الى الطبيعة الصحراوية وخاصيتها وظروف الاستقرار البشري بها، اذ يعد الماء احد ضروريات الحياة لدى سكان الواحات، وكيف استطاع الانسان التكيف مع مناخ هذه البيئة دون ان يغفل الكاتب عن ذكر اهم السلاسل الجبلية مشيرا إلى جبال الهوقار وجبال الطاسيلي وجبال اوزجار شرق قرقار بارتفاع نحو 700 الى 800م وهذه الجبال تألف ممرا تجاريا يربط منطقة غات وغدامس بالطاسيلي أين يتواجد توارق ازجر وهم من قطاع الطرق قاوموا المشروع التوسعي الاستعماري الفرنسي الذي راى فيه الضابط باكي مشروعا سلميا.

كانت جبال الكدية إحدى الجبال الصحراوية بمنطقة الهوقار اكتشفها لأول مرة الملازم كوتو ناست (Cottenest)سنة 1902م، وهو جبل صخري أعده التوارق رمز قوتهم وحصنهم المنيع، وارتفاعه ما بين 2500 الى 3000م قليل التعرض للتساقطات المطرية التي تعرفها المنطقة مرة في كل ثلاث إلى أربع سنوات، بينما درجات الحرارة بها متفاوتة جدا فهي تسجل في شهر نوفمبر فارق درجة الحرارة ما بين 02° إلى 44° درجة، وقريبا من

منطقة الهوقار سهول وأراضي مستوية خصبة بها مراع يبدو أنها كانت آهلة بالسكان أو مأهولة في الماضي أهم السهول سهل مويدير، وكانت هناك شما منطقة تيديكلت أراض مستوية لا وجود فيها لمساحة خضراء أنها تادمايت ارض العطش.

والى الجنوب الغربي للهوقار جبال أدرار اهات ما بين عين صالح وعين زيز ارتفاعها ما ين 400 الى 500م وتزداد الجبال ارتفاعا كلما اقتربنا من الهوقار حيث الملتقى، فيما عدا هذه الجبال المذكورة الباقي عبارة عن رمال العرق الكبير وعرق اقيدي والحمادة الصخرية.

من خلال دراسة الكاتب لتضاريس المنطقة ذكر أهميتها بالنسبة للسكان من الناحية الإستراتيجية ولصعوبتها لم يكن بمقدور قواتنا التغلغل في صحراء المنطقة بسهولة ذلك أن معرفة سكان الصحراء لبيئتهم كان عاملا مباشرا في إحراز انتصارات سريعة.

3.1- السكان:

وتسائل الضابط باكي عن سر عيش سكان الصحراء في مناطق خالية باستثناء الواحات وذكر منها واحات الساورة وتوات وتيديكلت التي تتغذى بمياه الأودية مثل واد زوزفانة ووادي قومي ووادي قير وعلى ضفاف هذه الادودية تتمركز قبائل عربية وبربرية واقليات من الزنوج الذين جيء بهم من ارض السودان، فالتوارق مثلا منقسمون الى قبائل عدة فهم في حالة حرب دائمة وينشطون للسلب والنهب مثل بربر المغرب ولهم اتحادات قبلية يراسها قادة لهم مصالح مشتركة فالتوارق المتواجدون غرب وشرق موادير والهوقار هم محاربون من أصل بربري معتزون بشخصيتهم وتواجدهم في هذه المنطقة عريق.

فالمجتمع القبلي المشكل من عامة وأشراف تحكمه عائلات وتنظمهم أعراف في شكل نظام إقطاعي وعددهم بالآلاف وتصل ساكنة الواحات إلى ما يقارب ستون إلف نسمة، فالتركيبة الاجتماعية للمجتمع الصحراوي من عرب وبربر وخصائصهم الاجتماعية وأماكن تواجدهم مرتبطة بموازين القوى والضعف في هذه المجتمعات الصحراوية وتركيبتها وبنائها الاجتماعي والانتروبولوجي.

3 . 2 - الاحتلال:

إن التوغل الاستعماري في الصحراء الجزائرية انطلاقا لما سبقه من إعدادات قانونية وأهمها معاهدة لالة مغنية التي أمضيت بين فرنسا والمغرب سنة 1845م، حيث اتفق الطرفان على انه من غير الضروري تحديد المساحات الواسعة فيما وراء الهضاب العليا شرق المغرب وغرب الجزائر لكون هذه المناطق صحراوية غير خاضعة لنفوذ السلطة الحاكمة، فالمادة الثالثة اعتبرت الخط الفاصل بين الحدود الجزائرية- المغربية بداية من الواد الكبير شمالا وتنتهي في ثنية الساسي جنوبا ليس ببعيد من العريشة، في حين المادة الرابعة نصت على عدم وجود حدود برية بين الدولتين لأن الأرض لا تحرث.

وكان لهذه الاتفاقية اثرا بارزا في تشجيع الحركة الاستكشافية فقد انطلق المستكشف الألماني رولف "Rolfs" من وسط إفريقيا سنة 1864م، واتجه شمالا عبر تيديكلت -الساورة- قير ثم تافيلالت، وذكر في رحلته واحات غنية ومأهولة، وتبعه في ذلك ضباط منهم الملازم بالات(Palat) سنة 1889م والملازم كولو (Colot) فورو (Foureau) سنة 1890م اللذان فقدا في الصحراء .

يعتقد باكي أن السياسة الفرنسية المتبعة في الجزائر كانت سببا ساهم في السيطرة على الصحراء من مستعمراتنا السنغالية إلى غاية ضفاف المتوسط لتشكيل إمبراطورية فرنسية واحدة غرب القارة الإفريقية.

ومن التساؤلات التي طرحها حول الطريقة التي نفذها الجيش الفرنسي أثناء توغله في الصحراء سؤالا قائلا: الم يكن استلاؤنا على عين الصفراء في سنة 1881م قد قلص من اهتماماتنا في توسيع حدود تواجدنا بالصحراء؟ لكنه في مقابل مقاطعة سياسة التوسع استطعنا تأسيس حامية في منطقة القليعة وملاحقتنا لأتباع بوعمامة إلى واحات فندي وسع أفاقنا وطموحنا أكثر نحو الجنوب سنة 1891م، فالسياسة الفرنسية ونشاطها نحو الجنوب جعلتها تنشأ عدة حصون عسكرية أهمها : حصن ماك ماهون

(Mak-Mahon) وحصن ميريبال (Miribel) بين سنتي 1892- 1893م ومركزين جديدين 100كلم جنوب القليعة، شمال طريقي قورارة وتيديكلت.

وطرح سؤالا أخر في معرض حديثه عن عين صالح قائلا: إذا كانت عين صالح المركز المعنوي والاقتصادي للصحراء الغربية فلماذا تأجل احتلالها إذن؟، وهذا التساؤل في حد ذاته طرح العديد من التساؤلات حول علاقة فرنسا بالمغرب والمعاهدات التي ربطت العلاقات بين الطرفين. (L.Baquey1908,p 15-16).

يرى باكي أن معاهدة لالة مغنية لم تصنع حدودا واضحة جنوب ثنية الساسي بل تركت المجال لنا مفتوحا جغرافيا جنوب الهضاب العليا، ومهما يكن فان المعاهدة الفرنكو انجليزية بين الطرفين الأوروبيين الموقعة بتاريخ 02 مارس 1899م اعترفت وأقرت لفرنسا بأحقية الأراضي الواقعة جنوب المتوسط ضمن السودان الغربي، ذلك أن طبيعة التوغل الفرنسي حسب رأيه اعتمد على تجهيزات عسكرية خفيفة لا نرهب السكان هناك حيث قمنا بإرسال بعثة علمية ترأسها العالم فلامان (Flamand) رفقة مائة مقاتل من فرقة القومية في شهر نوفمبر 1899م.

3.3 - بعثة فلامان:

تطرق الكاتب إلى بعثة فلامان الاستكشافية حيث وصف هذه البعثة العلمية التي كانت تحت إشراف السيد فلامان (L.Baquey،1908,p16-17) وهو أستاذ جامعي متخصص في الأبحاث الأثرية، وقد انطلقت البعثة من ورقلة بتاريخ 28 نوفمبر مصحوبة بفرقة القومية التابعة للنقيب بان Pein قدرت بـ 150 بندقية، ونائب الطريقة القادرية حاملا رسالة سلمية(مرجاني، 2019-2020،ص55)، وفيلق من الصبايحية بقيادة النقيب جارمان Germain، (Martin, Quatre Siècles d'histoire marocaine au sahara, 1923,p136.) ، حيث سارت البعثة بمحاذاة واد ميتا واجتازت تادمايت دون عراقيل غايتها الوصول الى عين صالح دون اي مشكل.

تعرضت البعثة إلى هجوم مباغت في إقليم ايفوغاس بتاريخ 29 ديسمبر1899م، حيث قتل 50 رجلا وأصيب 60 من عناصر البعثة، وعرفت المعركة باسم معركة ا ايفوغاس Igostes،(Martin, Les Oasis sahariennes, 1908,p136.) أمرا خطيرا لعرقلة تقدم البعثات الفرنسية، لذلك كان لزاما علينا تعزيز الحامية ب 150 قناص و150 من القومية، وبعد عودة السيد فلامان أبلغ السلطات الفرنسية بنتائج الحملة(L.Baquey, 190818, p17-).

. 4. الحملات الفرنسية في الصحراء الجزائرية:

- حملة دو D'eu :

حسب الكاتب أن المهمة السلمية للتوغل في الصحراء أصبحت غير ناجحة لذا قررت السلطات الاستعمارية الفرنسية استعمال القوة العسكرية في عملية التوسع الاستعماري، ومهمتها احتلال الواحات، ومن أهم هذه الحملات العسكرية حملة القائد "دو" D'eu والتي سميت بحملة تيديكلت حيث غادرت القوات الفرنسية منطقة القليعة في 24 فيفري 1900م وتعدادها 700 رجل مرفوقة بـ: 800حصان و1500 جمل، ووصف لنا الكاتب مجريات الحملة ووصولها الى عين صالح بعد سبعة عشر يوما وكيف التحقت بها حامية النقيب "بان" أثناء توجهها غربا نحو تنزروف، ص18 ثم توغلت داخل إقليم عين غار أين تتمركز هناك القوة المعادية التي كان يقودها باشا تيمي مصحوبا بـ: 150 رجلا كانوا في انتظار جنودنا (Martin, 1923 ,p296.) .

في 19 مارس حدثت مواجهة عنيفة بين قواتنا وقوات باشا تيمي الذي تحصن في قصر لكحل بعين غار، وواصلت حملة تيديكلت سيرها نحو الغرب عابرة إقليم طيط و اولف ثم عادت أدراجها تاركة ورائها عناصر من جنودها شكلوا حاميات طيط وعين غار وعين صالح، ورجع ما تبقى من الجنود إلى القليعة وتم الفصل بين حامية القلعية وباقي الحاميات في 17 ماي 1900م، فصار المستحيل شيئا ممكنا وأصبحت منطقة عين صالح

ملحقا للمكتب العربي تابع لمقاطعة الجزائر،وتبين لدينا وجوب تعزيز وجودنا وسيطرتنا على تلك المناطق لقطع الطريق أمام القبائل المغربية ذات الأعداد المتزايدة التي كانت تستفيد من تموينات صحراوية بفضل تجارة القوافل من جهة واستغلال هذه التموينات لصالح فرنسا لتخفيف أعباء وتكاليف الاستعمار.

- حملات برتراند(Bertrand) لوتال(Letulle) مينستورال (Ménestrel)

وصف لنا الكاتب الحملات العسكرية الفرنسية بمنطقة الجنوب الغربي الجزائري وذكر منها ثلاث حملات تشكلت في شهر مارس سنة 1900م:

- **الحملة الأولى** : ن الصفراء متوجهة عبر زوزفانة نحو ايقلي تحت امرة العقيد برتراند.

-**الحملة الثانية**: انطلقت من البيض جرينفيل عبر واد الناموس باتجاه قورارة بقيادة حملة الوسط الرائد لوتال.

-**الحملة الثالثة**: وهذه الحملة تمت تحت امرة العقيد منيسترال استهدفت قورارة أيضا عبر ضفة واد أمقيد لتصل الى تيميمون.(Martin, Quatre Siècles d'histoire marocaine au sahara, 1923,p326.)

وتطرق الكاتب الى الصعوبات التي واجهتها الحملة الاولى وتعرضها لخطر القبائل المغربية وكيف تعاملت القوات الفرنسية مع سكان الصحراء بمنطقة ايقلي وتيميمون والحاقها بالمكتب العربي، بينما بقيت منطقة قورارة وتيديكلت حلقة ربط في اقليم توات(Tillion, 1903,p25.).

- حملة سارفيار Servieres الأولى:

في جوان 1900م أرسل الجنرال سارفيار في مهمة تفتيشية إلى تيديكلت عبر واد ميا محاولا الدخول الى توات عبر الجنوب بمرافقة القومية الذين كانوا يرافقون النقيب "بان" مزودين بـ: 150 حصان وغايتهم الوصول إلى قورارة وتمكن الجنرال سارفيار من احتلال أدرار المركز الرئيسي لهذه المنطقة دون مشاكل تذكر أين وضع العلم الفرنسي، متلقيا الموافقة والتهاني من الأهالي المجتمعين .

ذكر الكاتب بعض من المعارك التي دارت بين قوات المقاومة والقوات الفرنسية وذكر منها: معارك سهلة المطارفة في 27- 30 اوت 05 سبتمبر 1900م خاضها النقيب فالكونتي Falcontti رفقة القائد جاك Jaques .

- حملة سارفيار الثانية: وقعت بتيميمون في 19 فيفري 1901م وكان من نتائجها مقتل ضابطين و09 جنود وجرح ضابطين و35 جندي.

- معركة شروين في 28 فيفري 1901.

- معركة الحميرة 01 مارس1901م.

ومن الخسائر الفرنسية جراء هذه المعارك اغتيال النقيب راميلون Ramillon والملازم دولا هيلوري De la Hellerie و23 جندي وتم التخلي عن البقية وعادت المجموعة إلى تيميمون حاملة معها 36 جريحا من بينهم ضابطان(رموم، 2016، ص 77).

1.-4- إنشاء الكتائب الصحراوية:

لتسهيل عملية التوغل الاستعماري كان على السلطات الاستعمارية تجنيد فرق عسكرية من أبناء تلك المناطق الصحراوية لمعرفتهم الجيدة لتضاريس المنطقة ومعرفتهم للقبائل المتواجدة فكان انشاء الجيش الصحراوي في فيفري 1902م، كما تم إبقاء الوحدات الصحراوية السابقة من قناصين وصبايحية، وبلغ عدد هذه الكتائب أربعة الى غاية سنة 1904م وكانت تضم 200جندي و30 فارس و60 مهاريست يشرف عليها نقيب واحد و04 ملازمين و13 صف ضابط ومجموعة من الجنود الفرنسيين والجزائريين ولكل كتيبة طبيب ومترجم.

وضع مركز الكتيبة الأولى في عين صالح وعرفت بكتيبة تديكلت، والثانية في ادرار وعرفت بكتيبة توات أما الثالثة فتم الاستغناء عنها بمرسوم 01 اوت 1905م كان مقرها في تيميمون عرفت بكتيبة قورارة ، وفيما بعد تأسست كتيبتان جديدتان في بني عباس وفي كولومب بشار بتاريخ 22 افريل و07 جوان 1904م. ص30.

وكانت مهمة هذه الفرق العسكرية متابعة المجرمين ونشر السلم ومواصلة استكشاف المناطق الصحراوية وقد تعرضت هذه الفرق الى خطر المقاومة حيث شهدت معارك اهمها: معركة قصر العروج 25 مارس 1903، وحادثة زناقة 31 ماي 1903، وحصار تاغيت 17 أوت 1903، ومعركة المنقار 2 سبتمبر 1903.

ووصف الكاتب معركة المنقار التي اعتبرها من ابرز المعارك التي خاضتها فرنسا في مواجهة المقاومة حيث شهدت القوات الفرنسية هزيمة خلفت خسائر مادية وبشرية كان منها 34 قتيل و 95 جريح من مجموع 110 جندي إضافة إلى ذلك تم سرقة جميع الجمال والحمير و 25 بندقية و 5000 خرطوشة 500 بندقية طراز 1885م، لذلك سارعت فرنسا إلى اتخاذ الاحتياطات الأمنية الفورية ومن هذه التدابير:

ومن هذه التدابير:

1- التخلي عن زوزفانة كخط مراقبة وتعويضه غربا تجاه جبل بشار في منطقة قير.

2- تكثيف المراقبة غربا بواسطة انشاء مراكز متحركة.

3- تمديد طريق السكة الحديدية من بني ونيف الى بشار.

أولا: التخلي عن زوزفانة:

كانت طريق واد زوزفانة منذ سنة 1900م طريقا محاذيا لخط سكة الحديد العابرة للواحات فهي تجتاز جبل مومن أين حدثت معركة قصر العروج وجبل بشار وصولا الى تاغيت وظلت هذه الطريق طريقا مليئة بالذكريات الحزينة من معارك واغتيالات التي ارتكبت منذ قدومنا للمنطقة.

أن منطقة بشار حتى غاية 1904م ظلت مخبئا وملجئا لأعدائنا، وكان للاتفاق الفرنكو مغربي المتعلق بترسيم الحدود بين الجزائر والمغرب سهل تحديد هوية القبائل الحدودية فاجبر قبيلتي ذوي منيع وولاد جرير، إما أن تعلن الولاء لفرنسا أو تغادر المكان، الا أن هاتين القبيلتين رفضتا الخضوع لسلطان المغرب ولم تغادر أراضيها وصارت بذلك تحت الولاء الفرنسي وجاء هذا الاتفاق عن اثر مأساة المنقار التي انتهت باحتلال

قصر بشار في 12 نوفمبر 1903م والحاقة ببني ونيف وفي هذه الأثناء أوصلت سكة الحديد بمنطقة بويعلى وبن زيرق وبوعياش ووضع حامية عسكرية ببشار(L.Baquey, 1908,p 33-40)..

ثانيا: تكثيف المراقبة والحراسة غربا:

كان واضحا أن وضع حامية واحدة ببشار أمر غير كاف لتعزيز وجودنا، فكان لزاما علينا وضع مركز لجمع المعلومات عن المجرمين وتتبعهم وقد تقرر إنشاء كتيبة صحراوية جديدة في 07 جوان 1904م على شاكلة الكتائب السابقة لهذه الغاية، وجاء إنشاؤها في وقت سريع تحت أمر وقيادة الرائد بيرون "Pierron" حيث قامت هذه المجموعة المتحركة بالتصدي للاعتداءات الأجنبية ووصلت مراقبتها الى غاية زوزفانة وساهمت في استتباب الأمن هناك.

ذكر الكاتب المراسيم الفرنسية التي خصت عملية التوسع في الصحراء الجزائرية ومنه مرسوم 22 افريل كان هدفه تمديد التوسع جنوبا وغربا، وتوسيع نشاط قواتنا المتحركة كما تم إنشاء كتيبة كولومب بشار على الحدود المغربية وكان لها الأثر الكبير في الحماية والدفاع عن ممتلكاتنا الجديدة.

ثالثا- وحدة القيادة:

قام الجنرال ليوتي "Lyautey"بربط الطريق بالتلغراف الذي يربط مركز قيادته جنوب عين الصفراء بمختلف المراكز التابعة له جنوبا وغربا مثلما كان الحال بين عين صالح والجزائر، وقد وتم ربط تاغيت وبني عباس بعين الصفراء في جانفي سنة 1904م، وكولومب بشار عبر بني ونيف في افريل سنة 1905م ، وهذه الإجراءات بدأت عملية دراستها بعد الحادث المأسوي بالمنقار سنة 1903م.

وفي خطاب للحاكم العام حث على ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة لإيقاف العمليات الإجرامية في المنطقة، وفعلا استتب الأمن أخيرا وانتهت مرحلة الشك والخوف، مع إنشاء

حاميات صغيرة خلف الجدران، فالكتيبة المتحركة صدت العمليات الإجرامية وكانت تتحرك بنفس سرعة العدو مجهزة ومدربة لتحقيق الأمن والسلم، وخاصة لما وصل القطار إلى بشار في سنة 1905م حاملا الى السكان المرهقين حضارة مزدهرة ومتطورة، ولقد فهم الجميع من سكان القصور والبدو الرحل، أن القتال ضدنا وفيما بينهم لن ينفعهم.

أنه ملخص توغلنا في هذا الجزء من الصحراء منذ سنة 1899م، وأكيد أننا لم نذكر الأحداث السياسية لكن الاستعمار عمل على نشر السلم وهذا ليس كافيا بل ينبغي التفكير في التنمية والتطوير، وهل كان تمديد سكة الحديد نحو بشار ضروريا وكافيا لبعث تطوير الصحراء.؟، وهل نخن ملزمون في تمديد سكة الحديد إلى غاية إيقلي حتى يكتمل المشروع العابر للصحراء؟.

4. 2.الجزء الثاني من الكتاب "الطابع الاقتصادي" :

تناول الجزء الثاني من الكتاب الجانب الاقتصادي وارتباطه بمشروع السكة الحديدية العابرة للصحراء،حيث يطرح الكاتب عدة تساؤلات أهمها : ما هي المعطيات التي كنا نملكها عن الصحراء الشاسعة منذ 1880م وكيفية عبورها بإنشاء السكة الحديدية، في غياب إحصاءات تجارية وزراعية يعتمد عليها في دراستنا أو حتى تقييم الأهمية الاقتصادية للمساحات الصحراوية، فتقارير المستكشفين ذكرت الأراضي والمنتجات الفلاحية المتواجدة بالصحراء لكنها لم تكن واضحة وكافية رغم ان فكرة ربط الجزائر بالسودان بواسطة سكة الحديد أخذت تشغل المال والاقتصاد في فرنسا.

وذكر الكاتب بعض الآراء التي تبين كيفية الاستفادة من الصحراء اقتصاديا ومنها رأي ليورو بوليو " إن الصحراء هي مساحات حجرية أكثر منها رملية" والصحراء الجنوبية أكثر خصوبة وجذبا من صحراء الشمال في قير سهول خصبة، مياه عذبة، الخشب، أشجار مثمرة، مراعي، وفي تاقاما مناطق خضراء حيث ترعى الأبقار والمواشي الماعز، وفي

"دامارغو"... أراضي خصبة حيث حقول القمح والتبغ والقطن، اعتمد لوروي بوليو Leroy- Beaulieu في معلوماته على كتاب بارث Barth لأنه لم يسبق له أن زار الصحراء.

وتطرق الكاتب إلى ما كتبه فورو (M.Foureau): " هل تغيرت البلاد منذ 45 سنة حقيقة، أم أن بارث اعتقد أن الغزلان هي قطعان الماشية وحقول القمح .... (ربما يقصد السيقلا) على أنها حقول القمح؟ أو أنه مجرد سراب؟. صحيح أن الصحراء أصبحت فقيرة منذ نصف قرن، وحان ربط الجزائر وتونس بالسنغال والسودان، والاستفادة من خيرات هذه البلاد.

إن أهمية الصحراء بالنسبة للسلطات الاستعمارية، دفعتنا إلى تأسيس لجنة في سنة 1880م لدراسة كيفية استغلال الصحراء ونقطة انطلاق السكة الحديدية.

كانت مهمة فلاترFlatters التي انطلقت من ورقلة 1881 بحثا عن طريق للتوغل مهمة فاشلة حيث تعرضت لإبادة في بير تاجنوت شرق الهوقار، وفي محاولات أخرى انطلقت لنفس الهدف لكن التوارق قطعوا طريقها، وقد حاول فورو في سنة 1880م القيام بمهمة للدخول إلى تيدكلت لكنه عاد أدراجه خائبا، هذه المحاولات وإن باءت بالفشل لكنها أدت بفعل ضغط رجال المال والعلماء والمستكشفين إلى التفكير في سياسة توسعية ناجحة في شمال إفريقيا، وعندما تم اكتشاف عين صالح ثم غزوها، عرفت السلطات الاستعمارية النتائج الايجابية للعمليات العسكرية التي من نتائجها إعادة بعث رونق الواحات واستغلال خصوبة أراضيها وإعادة بناء قصورها المهدمة، لان هذه المناطق هي أكثر استعدادا لجعلها متحضرة، ففي سنة 1901م أكدت لجنة إفريقيا الفرنسية على ضرورة ربط صحراء الجزائر بصحراء السودان.

ان صعوبة مدى التحكم في الصحراء جاءت نظرا لتباعد مناطقها والتكاليف التي تم صرفها على القوات النظامية في هذه المناطق، فالمسافة بين من ونيف عبر زوزفانة إلى

توات من 700 إلى 800 كلم، وهي مساحات خالية من النبات وسكانها مشتتون ومتباعدون.

ان مجموع النخيل بالمناطق الصحراوية في واحات قومي والساورة، توات، قورارة، تيدكلت 1800000 نخلة، ولا نعرف عدد النخيل غير منتجة ولا نوعيتها وجودتها مقارنة بالمناطق الصحراوية الاخرى، بينما المزروعات التي جلبها الفرنسيون للمنطقة لا تلبي حاجات السكان الا اليسير منها، فالنخيل ينمو في الاراضي الخصبة الساخنة قليلة الرياح وبالإمكان تطوير زراعتها فهي تحتاج الى ايادي عاملة والى ارادة فسكان القصور مثلا يميلون إلى الكسل ويكلفون النساء والعبيد بالعمل .(L.Baquey، 1908 47-45 p,).

ففي منطقة الساورة تعرف زراعة القمح لكن منتوجها لا يكفي فهم يجلبون القمح من المناطق الشمالية اما الصناعة التقليدية مثلا ففي جنوب بني عباس يقوم السكان بصناعة منتوجاتهم من الحلفاء والجلود والاصواف واعداد الحناء، وانتاج الحليب والزبدة والبيض، كما يعرفون القهوة والشاي والسكر وعود الثقاب وهذه المنتوجات يجلبها التجار اليهود ويقومون ببيعها للسكان بأثمان باهظة.

تعرف الصحراء تجارة القوافل التي تمون هذه المناطق وتمون حامياتنا العسكرية أيضا الى غاية أراضي توات، ومشروع سكة الحديد الذي وصل كولومب بشار جاء لهذا الغرض رغم المشاكل التقنية التي اعترضت هذا المشروع، وللذكر فان سكان المنطقة ومنهم سكان ذوي منيع فهم يزرعون القمح والشعير بوفرة في اراضيهم بقير وتجارتهم مزدهرة بين سكان القصور لكن اذا رجعنا الى منطقة الهوقار التي هي في قلب الصحراء فقد اصبح تأثير التوارق ضعيفا بعد دخول الملازم كوتنيست (Cottennest) سنة 1902م المنطقة الذي ذكر فقر الهوقار اكبر من فقر تيديكلت فالآبار قليلة والسماء تمطر مرة واحدة في السنة والسكان متباعدون والأراضي صخرية، حيث السلب والنهب هي الطريقة الوحيدة للعيش.(L.Baquey, 1908,p49-51)..

قام الملازم قيولهان (Guillo-Lohan)بجمع العديد من المعلومات والمخطوطات عن منطقة الهوقار ، وذكر ان جبل الهوقار وهضاب المؤيدير أكثر صعوبة اذ ترتبط بتيديكلت وافيستيان، الا ان هضاب المؤيدير معروفة بخصوبتها ورطوبتها عكس تيديكلت بلاد العطش والموت، وفي هذه البلاد كان كل رجل من كتيبة تيديكلت له وظيفة مزدوجة تجمع بين المزارع والعسكري، وهو ما كان يدفعهم إلى العمل.

إن الدراسات الأكاديمية التي جاءت بها الحملات العسكرية عن تلك المناطق الصحراوية وما قدمه السيد قوتي (Gauthier)من دراسة دامت ثلاث سنوات وهي دراسة جيولوجية للصحراء كانت ثمرة الرحلة التي قادته رفقة الرائد لابرين (Laperinne) الى عين صالح وعين زيز وتومبوكتو عبر مؤيدير حيث كتب في سنة 1909م" ان الصحراء ارض قاحلة خالية حقا ومن المستحيل أن يحمي جيشنا هذه المساحات لجفافها".

قطع قوتي المسافة من صحراء عين صالح إلى قاو عبر النيجر رفقه مجموعة من التوارق، ولم تتغير انطباعاته، وكان يعتقد ان هذه الواحات الفقيرة لن تعطي شيئا يستدعي من اجله احتلالها والتوغل فيها.

وذهب فوكو في كتابه من الجزائر الى تشاد إلى نفس ما ذهب إليه قوتي فصحراء اليوم لن نجني منها شيئا فمنتوجاتها لا شيء وتجارتها لا معنى لها، بالرغم من وجود أراض فحمية في تيديكلت والهوقار والطاسيلي وشمال ازجر الا أن التنقيب لم يظهر منها شيئا الى اليوم.

إن الصحراء قاحلة لا فائدة منها زراعيا وتجاريا وليس بإنشاء السكة الحديدية يمكن تطويرها وانما يمكن ذلك بوسائل اخرى ولكنها سوف تطول لكون سكان الهوقار مثلا حرفتهم السلب والتجارة فهم يتاجرون في اسواق غات وغدامس ونظرا لعدم وجود طرق تجارية واضحة فان هذه التجارة تعرف صعوبات لذا يجب على السلطات الاستعمارية الفرنسية ادراج رجال التوارق ضمن منظومتها العسكرية نظرا لطابعهم واستعدادهم الحربي وكسبهم كحلفاء حقيقيين وربط المنطقة بخط التلغراف الذي

سيربط الصحراء الوسطى بصحراء الشمال عوضا عن سكة الحديد المكلفة وهذا يعطي للصحراء الفرنسية دماء جديدة من الازدهار والحضارة في هذه المساحات الواسعة.

3.4- الجزء الثالث: الكتائب الصحراوية:

يرى الكاتب ان دور هذه الكتائب العسكرية هو طرد المجرمين وملاحقتهم، ومن نتائج هذا النظام سيكون تقليص عدد القوات النظامية الفرنسية بهذه المناطق الصحراوية، حتى نقلص من تكاليف الاحتلال، وقد اظهر النظام الجديد إيجابياته من خلال إنجازاته وهو امتدادا لمشروع العقيد نقريي والرائد مارسي سنة 1882م اثناء مطاردة بوعمامة وسي سليمان ورجالهما، فمنذ ذلك الوقت لم تتغير خطط "السكان" حيث أن الحركة هي نشاطهم الرئيسي فكان ينبغي علينا محاربتهم بسلاحهم، فقوات 1881م الخفيفة في الجنوب الوهراني المكونة من القومية والمدعومين من المشاة كانت حاضرة في الصحراء عبر ميليشيات تتنقل مثلما كان ينتقل اعدائنا التوارق وهذه ميزة الأشخاص المؤطرين في مستوى الانضباط والاحترافية يقاتلون مشيا على الأقدام.

إن هذه المعلومات المستقاة جمعها النقيب كوفي في 1902م ذكر فيها قوة التوارق مما جعله يعتقد بصعوبة محاربتهم الا بجيش مماثل لجيشهم، هذه الفرضيات أكدتها الظروف فيما بعد خاصة بعد استسلام مجموعات من التوارق في الغرب ببشار.

تشكلت المجموعة الخفيفة في تلك الفترة بموجب مرسوم 01 افريل 1902م كانت مكونة من: الوحدة المتحركة الاولى1 وضمت فصائل الكتيبة الصحراوية والوحدة المتحركة الثانية ضمت كتيبتين وأخرى قوة ثابتة احتياطية ثانية من المشاة، وتم تجنيد عناصر الكتائب الثلاث بتيديكلت وتوات وقورارة ونواتها الرئيسة تشكلت من كتيبة القناصين من فيلق الصبايحي الصحراوي وجزء أخر من القناصين الجزائريين التابعين للأفواج الثلاث الأولى وجزء أخير من قبائل الجنوب، حيث تمكنا من الحصول على العدد المناسب فكل جندي تعاقد لمدة سنتين كان هاته من الكتائب كان من حقه اختيار الأصناف المحارب مشيا أو على الحصان أو على المهاري.

كان النقيب المكلف بقيادة الكتيبة يشغل مهام رئيس الملحقة في الواحات، إما الملازمون الذين كانوا، إما جندي مشاة أو فارس وجندي رامي يقودون وحدات المشاة والفرسان والمهاري الذين يتبعونهم في رحلات الاستكشاف والمرافقة والرعي، بينما كان لضباط الصف الأوروبيين دور كبيرا فهم يتقنون العربية ويتميزون بالثقة والصرامة وروح المبادرة.

وهذه المجموعات التي يقودها ضباط صف أوروبيين يخدمون سنتين ولهم الحق في تجديد عقودهم بعد اجتياز امتحان دقيق، وكان من الضروري وضع في مقر كل كتيبة مؤونة 03 أشهر من المواد الغذائية، وفي حالة الحاجة يزود كل جندي ب 03 فرنك أو 4.70 فرنك يوميا حسب كل فئة من المشاة أو المهاريست او الفرسان ولهم من الأسلحة كرابين و120 خرطوش.

كانت الملابس موحدة تشبه لباس رجل الجنوب وحتى الضباط لهم نفس اللباس والاختلاف في قصر الشعر فقط، وكانت لهذه الوحدات مستقرة أو متحركة مظهر المحاربين الصحراويين الذين يتمتعون بالانضباط الكلي في نظام الحرب، ومن وجهة نظر القيادة والانضباط كانت كتائب تيديكلت وتوات بموجب مرسوم إعادة التنظيم في 01 أوت 1905م عبارة عن قيادة عليا يحكمها رئيس الكتيبة برتبة عقيد مقرها عين صالح، أما كتائب الساورة وكولومب بشار فقد كانتا وحدتين مستقلتين، وللنقيب الذي يتراس كل وحدة منهما صلاحيات قائد الأركان، وكانت هذه القيادات تابعة للجنرال قائد فرع عين الصفراء وهو حاليا الجنرال ليوتي في ماي 1902م(L.Baquey, 1908,p51-62)..

-خاتمة

نستنتج من خلال قراءتنا لكتاب الملازم باكي وما وصفه عن عملية التوغل الاستعماري بالصحراء الجزائرية وبالأخص منطقة الجنوب الغربي أن ما جاء به من ملاحظات تعد مصدر هام أرخ لفترة بداية غزو الصحراء الجزائرية ، ولم يغفل عن الوصف الجغرافي والبشري والاقتصادي ومراحل التوغل والتوسع العسكري الفرنسي واهم الحملات التي عينت لهذه

المهمة، كما أشار لأهم الصعوبات التي واجهتها قوات الاحتلال الفرنسي في هذه المناطق النائية ونستخلص من هذه المادة المعرفية التي استندت الى المشاهدة والتتبع وعلى كتابات سابقة للمستكشفين والرحالة وتقارير الضباط الفرنسيين وبعض الكتابات الأكاديمية إلى جانب الرواية الشفوية أن ما جاء به الملازم في كتابه الذي قسم لثلاث أجزاء يعكس النظرة الاستعمارية بوضوح التي ترمي لإعادة تأسيس منظور جديد عن الصحراء بمصطلح الصحراء الفرنسية وكيفية الاستفادة من ثرواتها وجعلها ضمن الإمبراطورية الفرنسية .

- قائمة المصادر والمراجع:

- بلعالم ,م .ب .(2005) .*الرحلة العلية إلى منطقة توات* .الجزائر :دار هومه، الجزائر.
- رموم ,م .(2016) .الاحتلال الفرنسي لأقصى الجنوب الغربي الجزائري والمجابهة العسكرية .*مجلة الحوار الفكري*،.61-60 ,(11)*11*
- قنان ,ج .(1994) .*قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر* .الجزائر :منشورات المتحف الوطني للمجاهد.
- مرجاني ,ع .ا .(2019-2020) .*السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19م* .سيدي بلعباس :أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس.

L.Baquey. (1908). *La pénétration saharienne résumé historique1899- 1905.* Paris: ed. militaire Henri charles Lavauzelle.

Martin. (1908). *Les Oasis sahariennes.* Alger: L'imprirerie Algerienne.

Martin. (1923). *Quatre Siècles d'histoire marocaine au sahara.* Paris: Librerie Lelix Alccan.

Tillion, G. (1903). *La Conquéte Des Oasis Sahariennes.* Paris.

Voinot. (1909). *Le Tidikelt.* Oran: Ed Imprimerie Typographique et Lithographique L'fouque.